ترجمنا لك

السيرة في منطق القرآن (١)

محمد الخليلي

انا نحن مسلمي هذا الجيل الذين شايعنا اسلافنا الكرام في اعتناق هذا الدين الحنيف الذى اعتنقوه قبل ١٤ قرنا تقريباً وسرنا على أثرهم في هذا الطريق السوى ، انا في كتابنا السماوى المقدس (القرآن) ذخائر علمية جمة تحل انا كل أسرار الحياة الانسانية وتبين حقائقها الواقعية على ما فيها من ابهام وغموض حتى لتجعلها سهلة مفهومة قابلة لان تهضمها عقولنا البسيطة وادراكنا المحدود .

وانا إن لم نكن أدركنا ذلك فقد ادعيناه وكنا به مشرين سعداء فى تنظيم منهاج حياتنا وتشخيص نهج الرقي الصورى والمعنوى وتقدم الروح والجسم حتى لقد أستغنينا عن كل شيء سواه .

ولكن مع الاسف ان الاختلاف الداخلي الذي حدث في صدر الاسلام قد جعل هممنا الجبارة ـ التى كان الواجب توجيهها نحو إستخراج تلك الكنوز العلمية واظهار حقائق الحياة الكامنة ـ منحرفة عن محورها الحقيقى إلى ناحية

(١) مترجم عن مقال للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائى نشر فى (درسهائى أز مكتب اسلام) عدد : ٢ — السنة الثانية

أخرى غير مقصورة الدين الاسلامي الحكيم . فبدلا من أن يعمل المسلمون بقوانين كتابهم السماوي المجيد ، ويفكروا فكرة اجتماعية عامة كما يأمر القرآن ، وعوضاً عن أن يطلب الفرد المسلم لمجتمعه ما يطلبه لنفسه كما يامره الاسلام ، قد أصبح لا يفكر إلا بنفسه ولا يعمل إلا لذاته ، حتى كان النزاع وكان الصراع وبدأ التشاحن وعم التباغض . وحتى اصبحت تلك الحرية الاسلامية الحكيمة الواضحة المنهج والمستقيمة المسلك ، مبدلة في أقصر مدة بامبراطورية قيصرية كسروية غلت يد الجامعة الاسلامية بقيود الظلم والاستعباد عن العمل واسكتت لسانها عن قول الحق والصدق .

وقد كان أولياء الامور واهل الحل والعقد يومذاك يدركون بذكائهم نقطة الضعف ولا يجهلون مواقع النقص والانحلال غير انهم كانوا مخدوعين بنفر من بائعي الضمائر وثلة من عبيد المادة من الذين كان لهم أثرهم ومكانتهم في الجامعة وهم الذين اخرجوا من ادمغتهم كل فكرة تنظر إلى الواقع البعيد وتدرك الحقائق كما هي ، بعد أن زرقوا فيها من الافكار الواهية السخيفة ماقتلت فيهم الهمم العالية وخنقت نهضتهم المترقبة .

وعلى أثر هذه السياسة المقصودة فقد فسر عامة الناس الحياة الاسلامية الحرة بحياة العبيد في العهد القديم ، وعرفوا المذهب الاسلامي باقوال حكام الوقت الجائرة الذين سموهم (ظل الله في الارض) وقالوا أن العدالة الاجتماعية الدينية عبارة عن ضرب كل من عصى سلطان زمانه واخفات صوت كل مخالف يتكلم بالحق وبما لا يرضى السلطان .

أما درس حقائق القرآن فقد اعتبروها الفاظاً وحروفا ونكات أدبية وسلسلة ابحاث مليئة بالتعصبات المذهبية المتنوعة التي نشأت عن الاختلافات

الاولى التي سبقتنا بقرون . فاذا ظهر واحد أو قامت جماعة من ناصري الحق والعدل وتكلموا حسب وجدانهم عن حقائق القرآن الكريم فان القتل او السجن أو التعذيب والتنكيل ينتظرهم دون اى رحمة أو تحقيق .

هذه حقائق لا يمكن لكل مؤرخ منصف أن يلقى عليها الستار أو ان يخفيها عن البصائر والابصار فقد منيت الجامعة الاسلامية بالانحطاط الاخلاقي والخمود الفكري وغرقت الأمة فى بحر من الجهل العميق من أثر هـذه السياسة الحرقاء التي تبناها الحكام الاول وساروا عليها طوال قرون عدة إبتغاء رضا السلطان الجائر .

وهنا جاء الغربيون بما لديهم من وسائل الاستعباد والاستعمار وفى مقدمتها الحرية المطلقة الجامعة لكل انواع المغريات واصناف الشهوات مشفوعة بالاسلحة الفتاكة من التبليغات المسمومة المجهزة ، ثم لقنونا تلقيناً وافياً بان جميع ما لدينا نحن من أفكار علمية اسلامية وكل ما نسير عليه فى حياتنا لاقيمة لها البته ، وإن الفكر هو فكر الغربيين ، والطريقة الصحيحة هي طريقتهم ، والحياة العملية النافعة هى حياتهم لا غير ، فاعتقدنا نحن أننا إذا أردنا الرقي المنشود والسير نحو الحياة الانسانية الصحيحة فما علينا الا أن نتبع خطاهم ونشايعهم فى الفكر والعمل كما يجب أن نقلدهم تقليداً أعمى دون أى قيد او شرط ، وإلا فلا حياة لنا سعيدة ولا عمل لنا مثمر .

بهذا التلقين المسموم فقدنا استقلالنا الفكري وخسرنا ما تبقى لدينا من همنا الاسلامية العالية حتى اصبحنا لا نرى انسانا الا الانسان الغربي ولا دنيا إلا دنيا الغرب ، ولا حياة غير حياة اوربا ، ولا سعادة الا بالمادة التى يجب أن نعبدها عبادة عمياء

والا نكي من ذلك كله ان يكون منطق اولياء الامور ومرشدي الجامعة والمفكرين منا هو قولهم : ان تعاليمنا المذهبية وارشاداتنا الدينية اصبحت في هذا العصر غير ملاءمة مع دنيا الحضارة الحاضرة (ويقصدون حضارة الغرب طبعاً) فيجب إذن ان تكون مقرراتنا الجارية في هـذه الحياة على حسب مقررات هذه الدنيا (دنيا الغرب). وبهذا القول كان المتنور المتمدن عندهم هو الذى تكون فكرته فكرة الغرب وعلامته ان لا يفكر فى دين ولا يعتبر مذهباً ولا يخضع لمعتقد سماوى البتة وعليه، ان يتمثـل دائماً بقول الشاعر المتنور المتمدن حيث يقول :

سئمت كل قديم عرفتـه في حياتي ان كان عندك شيء من الجديد فهات

واخيراً فقد بلغ بنا الحال انا إذا أردنا معرفة حوادثنا التاريخيـة الدينية أو تفسير حقائق ديننا الذى ندعى اعتناقه ان نسألها من الغربيين ونتعلمها منهم فهم يفسرون لنا معنى الدين ومعنى الاسلام وماهي دعائمها التي يستندان عليها وماهى المعارف الاسلامية وقوانينها وما تاثير الدين الاسلامى في سعادة الحياة ؟ إلى غير ذلك مما يندى له جبين كل مسلم غيور .

والخلاصة ان ما افاضته علينا افكـار الغرب عندما لمسوا فينا نقصا فى العقيدة وانحرافا عن تعاليمنا الاسلامية هو : ان الدين عبارة عن سلسلة من الاعمال والآداب والرسوم تستند على معرفة الله ، بها يسعد الانسان بعد الموت لا فى هذه الحياة وان هـذه العقيدة قد نشأت للانسان الاول في عهد الاساطير فى العصور المظلمة والسبب في ذلك ان الانسان القديم لنقص في ادراكه وقلة في تعقله للامور كان يعلل الظواهر الكونية والحـوادث الغامضة كالروح والروحيات والتغيرات السماوية وغيرها كالزلازل والطوفان والوباء والطاعون

ونظائرها بوجود مؤثر فوق الطبيعة سموه (الله) وانه هو الذى ترجى رحمته ويخشى عقابه :

اما اليوم وقد بلغ بنا العلم مبلغاً سامياً ، وواصلتنا العقول الغربية الجبارة إلى حيث تحل جميع المشاكل وتوضح كل المجهولات إلا النزر القليل الباقي الذى سوف يحل بتقدم الحضارة المستمر المتصل ، اما الآن وقد وصلنا الى القمة من الثقافة والتمدن فلم تبق لنا حاجة إلى الدين وليس من فائدة لمعرفة مجهول فوق الطبيعة يرجى ويخاف ، اللهم إلا إذا كانت هناك فائدة للاداب والعقائد والرسوم الدينية للانسان فهي الانسان بعد الموت فقط (هذا إذا فرضنا ان الدين أساساً ثابتاً ومعنى معقولا) اما مشاكلنا الدنيوية وحاجاتنا فى هذه الحياة فقد تكفلت بها العلوم الحاضرة والقوانين الحكيمة الغربية .

وعليه فقد أصبح الدين ومنطقه التقليدى من الاساطير القديمة البالية .

هذا هو تفسيرهم الدين وهذه هي نظرتهم اليه . ولا عجب فى ذلك إذ لا يتوقع غير هذا من اناس شغلوا بمبارزة الطبيعة وعبادة المادة حتى سخروا بالقضاء مضافا إلى ما ملكتهم من ميول وعواطف وشهوات حرة طليقة . ومن كان كذلك كيف لا يقول ذلك .

اما القرآن الكريم فانه يفسر الدين بتفسير آخر ويقيم اسسه على نحو ثان مستعملا لذلك منطقه الحكيم ومثبتاً مقاصده على لسان الفطرة والعقل . ولتوضيح ذلك نقول : اننا نعتقد بالفطرة ان سير هذه الحياة ودوران نظام هذه الخلقة لم يكن جاريا إلا على قانون طبيعي مسلم معقول وهو قانون العلة والمعلول ، إذ لم يكن باستطاعتنا أن نتصور حدث أي حدوث فى العالم وبروز أي ظاهرة فى فى الكون ووجود أى معدوم في الخليقة على سبيل المصادفة وبدون أى مؤثر

محدث لها في الوجود .

وعلى هذا فانه مما لا ريب فيه ان كل جزء من أجزاء هذا العالم له تأثيره الخاص في حدوث كل ظاهرة تحدث فيه ، وان كل ذرة من ذرات هـذا الكون لم تكن إلا معلولة لموجود آخر غيرها .

وهذا ما أوضحه لنا العلم الصحيح والفلسفة الصائبة وأباتته الفطرة والعقل السليم فالانسان (وهو مظهر من مظاهر هذا الكون له آثاره وأعماله) لم يزل مرتبطا بجميع أجزاء هذا العالم بحيث لو تأملناه لما وجدنا له استقلالا خاصا بنفسه بل نراه في كل حركاته وسكناته وأعماله وتصرفاته في حياته تحت تأثـير عوامل اخرى كثيرة لا تحصى في هذا العالم الذى هو ـ أى الانسان ـ جزء منه كما ان تلك العوامل تسير تحت نظام خاص يديره مـدبر حكيم عالم قادر أعني خالقها وموجدها بأجمعها.

والانسان في الحياة أيضاً كقطرة في محيط وسيع يتقلب في بطون أمواجه ضعيفا لا يملك مقاومة ولا مناعة ، يهبط تارة ويطفو اخرى ويميـل شمالا ويميناً دون اختيار ، ولكنه مع ذلك كله يرى نفسه مستقلا في أعماله متفرداً في تصرفاته لذلك فهو يقاوم الطبيعة الجبارة ويسخر هذه الدنيا العريضة ثم يطلب أن يدور الفلك حسب إرادته ، ولم يزل ملتذاً بهذا الحلم اللذيذ طائراً باجنحـة خياله إلى حيث يسمو به الخيال .

عجباً وبهراً ! أى استقلال وأى طلب ؟ وكيف تكون مبارزته للطبيعـة القاسية للتغلب عليها؟ في حين ان حياته وأفكاره والمواد التي يحصل عليها والوسائل التي يتخذها لاغراضه والظاهرات التي تصل اليه ، كلها تحت تأثير هذا العـالم المنتظم ونظامه المحير للعقول بحيث لم يبق أثر لاستقلاله فيها بل هي المؤثرة فيه

وفي استقلاله ، كما حكمت به الفطرة وأثبته العقل والوجدان .

أما اختياراته وارادته فهما أيضاً جزء من مآت الالاف من عوامل الكون واسبابه ومؤثراته التي تعمل فيه وتعمل (لاجله) وفي عين الحال هي من وسائل منهج الخلقة الالهية. وبالنتيجة تكون هذه الدعاوى الفارغة اعني مبارزة الطبيعة والعمل حسب الرغبة والميول وان الانسان باستقلاله يخلق مايريد ويوجد ما يطلبه كلها نظير دعوى من يندب حظه التعيس عندما يحرم من السعادة في فى حياته فانه ينتقد الخلقة والخالق دون جدوى ويقول :لماذا اذهبت ثروتي؟ ولماذا فقدت صحتي ؟ ما هذا الظلم الذي لحقني ؟ وأمثال ذلك . وقد تخيل هذا المسكين الجاهل أن لديه استقلالا فى قبال خالقه وأن له حقاً لادخل للخلقة فيه ، غافلا عن إنه هو نفسه وكلما ينسب اليه بل كلما كان ويكون وما هو كائن هو من صنع صانعه وخلقة خالقه . أما هذه الحقوق المزعومة ، وهذا الاستقلال الموهوم الذى يدعيه هذا المسكين الغافل فهي ظنون لا تخرج عن محيط الخيال والتصورات .

وخلاصة القول : أن هذا الانسان الذى هو جزء من عالم الخلقة محكوم عليه بالخضوع لنواميسها ، وهذه النواميس هي التي توجد كل ظاهرة في الكون ثم ترفعها إلى الكمال الطبيعي حسب الاستعداد الذى أودع فيها وتهديها إلى رفض النواقص الموجودة فيها قال ربنا (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) — طه ـ ٢٥ .

نعم هذه النواميس هي التي أودعت فى كل حبة من حبوب القمح قوى طبيعية وجهزتها بوسائل وفعاليات ثم نقلتها من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع حتى صيرتها سنبلة كاملة ذات خراطيش متعددة مليئة بالحبوب الكثيرة ،

وأخرجت من هذه الحبة سنبلة فى كل سنبلة مائة حبة .

وهذه النواميس هى التى جهزت النواة وزاقبتهاحتى نبتت نخلة ذات عرجون حامل لانواع التمور الحلوة الطيبة المريئة . وهي التي جعلت بين كل جزء من أجزاء العالم وجزء آخر : توازنا ونظاماً يبلغ بواسطته ذلك الجزء طريـــق الكمال والرشد ، بحيث إذا ما نهج ذلك الطريق ساندته كل الاجزاء وساعدته على إستقامة حياته ، والافسوف يحي حياة متناقضة غير مستقيمة وأخيراً فاما أن يرجع إلى سيره الطبيعي فيعيش وأما أن يعدم من الوجود .

(وهذه مسألة تحتاج إلى دقة نظر وتفهم)

ثم أن هذا الانسان لما كان أحد اجزاء هذا الكون المخلوق بحكمة وإتقان فان الطبيعة الكونية قد هيأت له وسائل مخصصة وامورا معينة فى حياته وأودعت في طيها تجهيزات محدودة يمكنه بواسطتها أن يرفع نواقصه الوجودية حتى يصل إلى كمال سعادته .

وقد قال القرآن الكريم : أن حياة الانسان حياة أبدية دائمية لا تنقطع بالموت (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يحييكم إلى يوم القيمة لا ريب فيـــه — الجاثية — ٢٦) .

فالواجب عليه إذن أن يتخذ فى الحياة طريقة تنفعه فى هذه الدنيا وفي الآخرة (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة اعمى — طه — ١٢٥) .

وأن يسير في منهج واضح مستقيم يوصله إلى سعادته في الدارين ، وهـــذه الطريقة هي التي يسميها القرآن (ديناً) فان الدين ما الهمتـــه الخلقة وجعلته منهجاً عاماً لسير الحياة نحو الكمال واستقامتها نحو الرقى .

(فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم — الروم — ٣٠)

وختاما فقد أتضح من كل ما تقدم : أن الدين في منطق القرآن عبارة عن نهـــج الحياة الاجتماعية الذى يتخذه الانسان الاجتماعي لتأمين سعادة الحياتين له .

وحيث أن حياة الانسان لا تنحصر بما قبل الموت فقط، وجب لذلك أن يكون نهجه الذى يسير عليه في حياته مشتملا على سلسلة من القوانين والرسوم والاداب التي ان عمل بها أسعدته في دنياه وعلى سلسلة من العقايد والاخلاق والعبادات التي أن عمل بها أمنته فى أخراه .

وبهذا يثبت أن أساس الدين الذى يلحظ هاتين الجنبين يجب أن يثبت على دعامة من الخلقة الواقعية لا على الميول والارادات الواهية ، لان كل ما يحتاجه الانسان في وجوده وكل ضرورياته التي جهزتها له الخلقة الكونية يجب أن يلحظها وينظمها الدين الذي هـــو المنهج الاجتماعي العام وان ينظر اليها بنظر العدل والحكمة ، لا أن تسير حسب رغبـة الانسان وأرادته وهي سلسلة أوهام وميول وشهوات يطلبها جهلا وغروراً .

وبعبارة ابسط : أن الدين في نظر القرآن يجب أن يجري فى الجامعـة الانسانية على مقتضى الحق والواقع (كتابا انزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم) لا بمقتضى طلب الناس وارادتهم دون نظر إلى النفـــع والضرر الحقيقيين ، ولا بمقتضى أمر فرد حاكم قاهر مطلق العنان فيما يشتهى من الحكم ومايريد (ولو اتبع الحق اهـــواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن — المؤمنون — ٧٣).

ومن هنا يعلم ان الاسلام هـو الدين الوحيد الذي يرعى الحقوق الطبيعية الواقعية لكل فرد من الجامعة دون استثناء بخلاف الطرق الاستبدادية الظالمة المختلفة التي تعتقد أن الحقوق تجرى على حسب إرادة الفرد الحاكم المستبد برأيه كما في الحكومة الدكتاتورية . أما الديمقراطية فهي تسير في قوانينها حسب رأى الاكثريه في الجامعة ، ولكن مقياس الاكثرية فيها يتحقق بنصف الجامعة باضافة واحد عليه ، كما أن مقياس الاقلية على الاكثر يكون بنصف الجامعة بنقصان واحد عنه .

هذا ما نكتفي به الآن في هذا البحث الذى يحتاج إلى بيان أوسع وبحث أطول وعسانا نرجع اليه مرة أخرى بالتفصيل والله الموفق .

محمد الخليلي

فاعتبروا يا اولي الابصار

« سيكـون في آخر هـــذه الامة رجال : نساؤهم كاسيات عاريات ، رؤوسهن كأسنمة البخت العنؤهن فانهن ملعونات . . »

حديث شريف